علاء الدين
أو المصباح العجيب

(٤)

وظلّ علاء الدين ، ووالدته يأكلان من الطعام يومين كاملين ، وبعد أن نفد ، أخذ علاء الدين واحداً من الأطباق الفضية ، وخرج قاصداً أحد الصياغ ، ليبيعه إياه ، فلقيه أحد التجار ، وعرض عليه جنيهاً ذهباً ، فأخذه علاء وابتاع منه طعاماً وزبداً ، ثم عاد إلى والدته ، مبشراً إياها بسعادة في الحياة ، ورغد في العيش ! وكان علاء الدين ، كلما أنفق جنيهاً باع إناء من الأواني الفضية ، حتى باعها جميعها ! ! ثم أعاد الكرة على خادم المصباح ! فأحضر له صينية أخرى ، عليها ما لذ وطاب ، من ألوان الطعام والفاكهة والحلوى ! ! في أوان من فضة ! ! فجعل علاء ووالدته يأكلان من الطعام ، في وجبات مختلفة ، حتى إذا نفد الغذاء ، عمد علاء الدين إلى الأواني الفضية ، فباعها جميعها ! ! ولكنه في تلك المرة ، كان أسعد حظاً ! لأنه وجد تاجراً يشري منه الإناء بخمسين جنيها ! ! وظل علاء ووالدته يعيشان على هذا الشكل ، يجدان ما يبغيان ، من وسائل الترفه والنعمة ، ويعمان في بحبوحة العيش الرغد ؛ ولكن من دون أن يثيرا الشكوك من حولهما ! ! ومن دون أن يبعثا في صدور الجيران الشبهة والظنون ! فيحقدوا عليهما ! ! أو يدفعهم الفضول ، إلى كشف سرهما ! ! وكانا في ذلك ! حريصين ! ! أشد الحرص ! ! حتى لقد كان من المقدر إلى تلك الساعة ؛ أن يفقه أحد ، إلى ما كان يجري في داخل ذلك المنزل الصغير ؛ في وسط تلك المدينة العظيمة العامرة ! ! على أن علاء ، لم يقض أيامه عبثاً ؛ ولا لهواً ! رغم أن وسائل الرزق قد تيسرت له ، بل كان يقصد دوائر التجار وطبقة المثقفين بالمدينة ،

فَنَهَضَ بِنَفْسِهِ ، وَرَفَعَ مِنْ مَدَارِكِهِ ، وَمَوَاهِبِهِ ، فَأَصْبَحَ يَفْهَمُ الْمُجْتَمَعَ وَحَاجَاتِهِ .

وَذَاتَ يَوْمٍ ، بَيْنَمَا كَانَ عَلَاءُ يَجُوسُ خِلَالَ الْمَدِينَةِ ، إِذْ سَمِعَ مُنَادِيًا يُنَادِي : « أَفْسِحُوا الطَّرِيقَ ! ! أَفْسِحُوا الطَّرِيقَ ، وَالْزِمُوا دُورَكُمْ ! ! » وَسَأَلَ أَحَدَ الْمَارَّةِ ! عَنِ الْقَادِمِ ، فَعَلِمَ أَنَّ ابْنَةَ السُّلْطَانِ ، سَتَقْصِدُ حَيَّ الصَّبَّاغِ ، لِتَبْتَاعَ جَوَاهِرَ وَأَحْجَارًا كَرِيمَةً ! ! فَفَكَّرَ عَلَاءُ قَلِيلًا ؛ ثُمَّ خَطَرَ لَهُ أَنْ يَقِفَ فِي مَكَانٍ مَسْتُورٍ ، يَسْتَطِيعُ مِنْهُ أَنْ يَرَى مَوْكِبَ الْأَمِيرَةِ ، مِنْ دُونِ أَنْ يَرَاهُ أَحَدٌ ! ! وَاخْتَارَ مَكَانًا خَفِيًّا ، وَمَرَّتْ مِنْ أَمَامِهِ الْأَمِيرَةُ ، فِي عَرَبَةٍ فَخْمَةٍ ، تَجُرُّهَا جِيَادٌ مُطَهَّمَةٌ ! ! وَمِنْ خَلْفِهَا الْوَصِيفَاتُ ! ! وَكَانَتِ الْأَمِيرَةُ ، مَضْرِبَ الْأَمْثَالِ ، فِي الرِّقَّةِ وَالْجَمَالِ ! ! وَكَرِيمِ الْخِصَالِ ! ! وَلَمْ يَكَدْ يَرَاهَا عَلَاءُ الدِّينِ ، حَتَّى شَعَرَ بِعَاطِفَةٍ قَوِيَّةٍ تَجْذِبُهُ نَحْوَهَا ، وَتُدْنِيهِ مِنْهَا ! ! فَحَارَ فِي أَمْرِهِ ! ! وَهُوَ لَا يَدْرِي كَيْفَ الْوُصُولُ إِلَيْهَا ! ! أَلَمْ تَكُنِ ابْنَةَ السُّلْطَانِ ؟ ! وَمَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرْتَقِيَ إِلَى ذَلِكَ الْمَقَامِ ؟ ! وَمَرَّتْ عَلَى عَلَاءِ الدِّينِ فَتْرَةٌ ، كَادَ يَفْقِدُ فِيهَا كُلَّ أَمَلٍ فِي بَهْجَةِ الْحَيَاةِ وَنَعِيمِهَا ! ! وَعَادَ إِلَى مَنْزِلِهِ ، حَيْرَانَ أَسِفًا ! ! كَسِيفَ الْبَالِ ! ! مَكْسُورَ الْخَاطِرِ ! ! وَلَحَظَتْ عَلَيْهِ ذَلِكَ أُمُّهُ ، فَسَأَلَتْهُ فِي حَنَانٍ : « مَا بَالُكَ يَا بُنَيَّ يَبْدُو عَلَيْكَ الْقَلَقُ وَالِاضْطِرَابُ ؟ هَلْ تَتَأَلَّمُ مِنْ شَيْءٍ ؟ »

فَأَجَابَهَا عَلَاءُ الدِّينِ ، فِي شَيْءٍ مِنَ الشَّجَاعَةِ ، وَالثِّقَةِ بِالنَّفْسِ : « يَا أُمَّاهُ ! ! لَقَدْ رَأَيْتُ الْيَوْمَ ، ابْنَةَ السُّلْطَانِ ؛ وَمَا كُنْتُ أَدْرِي أَنَّ فِي الْقُصُورِ مِثْلَ ذَلِكَ الْجَمَالِ السَّاحِرِ ! ! وَالرِّقَّةِ الْفَاتِنَةِ ! ! وَلَقَدْ تَعَلَّقَ بِهَا قَلْبِي ! وَأَصْبَحْتُ أَرَى سَعَادَتِي مَرْهُونَةً بِهَا ؛ ! ! فَلَا بُدَّ مِنْ طَلَبِ يَدِهَا مِنَ السُّلْطَانِ ! »

فَقَالَتِ الْأُمُّ ، وَقَدْ اعْتَرَاهَا الذُّهُولُ : « مَاذَا تَقُولُ يَا بُنَيَّ ؟ هَلْ أَنْتَ تَمْزَحُ ! ! أَمْ أَنْتَ تَسْعَى لِحَتْفِكَ ! ! أَيْنَ نَحْنُ مِنَ السُّلْطَانِ وَابْنَتِهِ ! ؟ بَلْ أَيْنَ نَحْنُ مِنْ خَدَمِهِ وَحَشَمِهِ ! ! عُدْ يَا بُنَيَّ إِلَى عَقْلِكَ ! وَلَا تَكُنْ مَجْنُونًا ! »

فَقَالَ عَلَاءُ الدِّينِ فِي هُدُوءٍ : « لَا يَا أُمَّاهُ ! ! لَسْتُ مَجْنُونًا : وَإِنِّي لَمُصَمِّمٌ عَلَى طَلَبِهَا مِنَ السُّلْطَانِ ، مَهْمَا طَرَأَ فِي سَبِيلِي مِنَ الصِّعَابِ ! ! وَلَسْتُ بِيَائِسٍ مِنَ النَّجَاحِ ! ! مَا دَامَ بِجَانِبِي خَدَمُ الْخَاتَمِ وَالْمِصْبَاحِ ! ! وَلَا تَنْسَيْ يَا أُمَّاهُ أَنَّ عِنْدِي هَدِيَّةً فَاخِرَةً ، لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِبَنَاتِ الْمُلُوكِ ! ! »

فَسَأَلَتِ الْأُمُّ عَلَى الْفَوْرِ : « وَمَا هٰذِهِ الْهَدِيَّةُ يَا بُنَيَّ ؟ ! أَرِنِي إِيَّاهَا ! »

فَقَالَ عَلَاءُ الدِّينِ : « أَتَذْكُرِينَ الْجَوَاهِرَ وَالْأَحْجَارَ الْكَرِيمَةَ النَّادِرَةَ ! الَّتِي أَحْضَرْتُهَا مَعِي مِنْ حَدِيقَةِ الْقَصْرِ الَّذِي فِي جَوْفِ الْأَرْضِ ! ؟ »

وَقَامَ عَلَاءُ الدِّينِ ؛ فَوَضَعَ الْجَوَاهِرَ وَاللَّآلِئَ ، فِي صِينِيَّةٍ مِنَ الْفِضَّةِ ، ثُمَّ سَأَلَ أُمَّهُ : مَاذَا تَرَيْنَ يَا أُمَّاهُ ! ؟ أَلَا تُعْجِبُكِ تِلْكَ الْجَوَاهِرُ ، لِطَلَبِ يَدِهَا مِنَ السُّلْطَانِ ! ؟ أَلَا تَشْعُرِينَ الْآنَ ، بِأَنَّكِ سَتَذْهَبِينَ إِلَى قَصْرِ الْأَمِيرَةِ ، بِقَلْبٍ ثَابِتٍ وَنَفْسٍ مُطْمَئِنَّةٍ ! ! ! ؟ »

فَقَالَتِ الْأُمُّ ، « حَقًّا يَا بُنَيَّ ! إِنَّهَا لَهَدِيَّةٌ جَدِيرَةٌ بِبَنَاتِ الْمُلُوكِ ! وَسَأَتَوَكَّلُ عَلَى اللهِ ، وَأَقْصِدُ قَصْرَ السُّلْطَانِ ، فِي الصَّبَاحِ ، وَأَعْرِضُ عَلَيْهِ مَطْلَبَكَ هٰذَا ؛ عَسَى اللهُ أَنْ يَجْعَلَ الْأَمِيرَةَ ، مِنْ نَصِيبِكَ ! ! مَنْ يَدْرِي ! ! »

وَفِي الصَّبَاحِ غَطَتِ الْأُمُّ الْجَوَاهِرَ ، بِغِطَاءٍ مِنَ الْحَرِيرِ الْجَمِيلِ ، وَقَصَدَتْ إِلَى مَجْلِسِ السُّلْطَانِ ، فَوَجَدَتِ الْوُزَرَاءَ وَكِبَارَ الْمُوَظَّفِينَ ، كُلٌّ فِي مَكَانِهِ فِي انْتِظَارِ السُّلْطَانِ ، لِلنَّظَرِ فِي شُئُونِ النَّاسِ وَمَظَالِمِهِمْ ! ! ! وَجَلَسَتِ الْأُمُّ فِي صَدْرِ الدِّيوَانِ ، وَبَعْدَ قَلِيلٍ أُقْبَلَ السُّلْطَانُ ، وَاتَّخَذَ مَكَانَهُ بَيْنَ وُزَرَائِهِ ، وَأَخَذَ يَنْظُرُ فِي الْمَظَالِمِ ، وَالْقَضَايَا ، حَتَّى انْتَصَفَ النَّهَارُ ؛ وَغَادَرَ السُّلْطَانُ الْمَكَانَ ، قَبْلَ أَنْ تَتَمَكَّنَ الْأُمُّ ، مِنِ انْتِهَازِ فُرْصَةٍ ؛ لِتَتَقَدَّمَ بِمَطْلَبِهَا . فَعَادَتْ إِلَى الْمَنْزِلِ ، وَلَقِيَهَا عَلَاءُ الدِّينِ ، فَقَالَ لَهَا فِي لَهْفَةٍ شَدِيدَةٍ :

« مَا وَرَاءَكِ يَا أُمَّاهُ ؟ »

فَقَالَتِ الْأُمُّ : « يَا بُنَيَّ ! الْيَوْمَ لَمْ أَتَمَكَّنْ مِنْ مُفَاتَحَةِ السُّلْطَانِ فِي هٰذَا الْأَمْرِ ، وَلٰكِنَّنِي وَاثِقَةٌ ، مِنْ أَنَّهُ رَآنِي ، وَسَوْفَ أَقْصِدُ إِلَيْهِ فِي الصَّبَاحِ لِعَرْضِ هٰذَا الْمَطْلَبِ . » (يتبع)

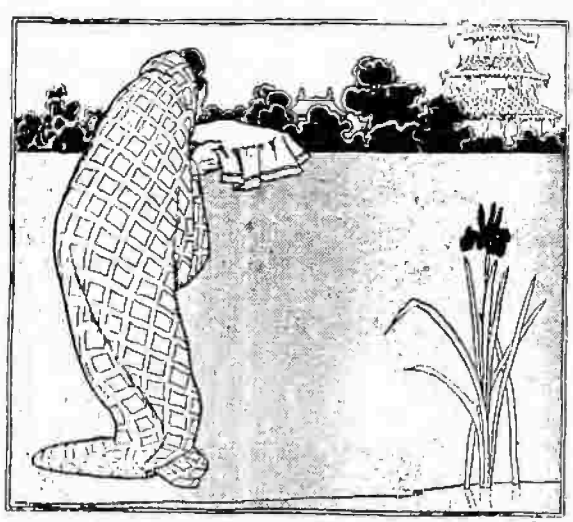

وفى الصباح غطت الأم الجواهر وقصدت إلى مجلس السلطان